الفصل الثاني

الحـــضـــارة

- لماذا التعريف
- ركام من التعريفات
- رؤية مستقلة

obeikandl.com

obeikandl.com

لماذا التعريف ؟

الحضارة مصطلح لم يستخدم في العصور السابقة بمعناه الذي يستخدم به الآن ، وما يفهمه منه سامعه في عصرنا غير ما كان يفهمه منه سامعه في الماضي ، فهو مصطلح أو كلمة حديثة .

وكل مصطلح حديث يحتاج إلى التعريف حتى يفهم القارئ ما يعنيه الكاتب ويستطيع استيعاب ما يريده والحكم عليه .

ولما كان المصطلح تكثيفاً وضغطاً ومزجاً لعديد من المعاني والإيحاءات والظلال التي تدخل في تكوينه وتركيبه ، ففي التعريف إخراج لما يحمله المصطلح داخله ويتكثف فيه من الظلام إلى دائرة الضوء حتى يمكن رؤيته وفهمه .

على أن هناك سبباً آخر أهم وأكثر خطورة لضرورة تحديد الكاتب لما يقصده من هذه الكلمة أو المصطلح ، الحضارة ، عند حديثه عنها .

وهذا السبب الأهم والأكثر خطورة هو أن كلمة الحضارة قد دخلت ضمن قائمة الألفاظ والمصطلحات المطاطة التي يكيفها من يشاء على قدر ما يريد أن يصل إليه منها ، أو هي أصبحت من الألفاظ الأوعية التي لا يتحدد معناها ولا المفهوم منها إلا بمعرفة ما يملؤها المتحدث عنها به ، بالضبط كأخواتها المطايا التي يسرجها ويمتطيها العشرات والمئات ، وكلٌّ يلوي عنقها إلى الوجهة التي يريدها : الثقافة ، المدنية ، التقدم ، الحرية ، الأخلاق ... إلخ

فما يقصده الغربي حين يتكلم عن الحضارة يختلف ، أو المفروض أن يختلف ، عما يعنيه العربي ، وما يريد أن يصل إليه القومي على جناح

المصطلح غير ما يريده الماركسي غير ما يريده الليبرالي وغير ما يريده الإسلامي .

فكل منهم له نسقه ومنظومته التي ينظر من خلالها للأشياء والأفكار والعلاقات بينها ، والتي على أساسها يتحدد في عقله المعنى الذي يفهمه ويرتضيه من الحضارة ، ويحدد به ما يدخل في دائرتها وما يخرج عنها وما يناقضها .

لذا أن يحدد من يتكلم عن الحضارة ماذا يعني بالحضارة خطوة أولى لا سبيل لإسقاطها أو تجاوزها ، فإذا التقينا معه على التعريف والمعنى الذي يراه للحضارة يمكن أن نناقشه فيما نتج عن هذا المعنى من نظرة للأشياء والأفكار ومن تحديد للمواقف .

أما إذا لم نتفق معه فإن المشكلة حينئذ تكون أصلية مبدئية ، ولا فائدة ، بل هو من السفاهة عندها التناحر حول الجزئيات التي تفرعت عن المعنى الأصلي الجذر الذي هو حينئذ محل الخلاف وميدان المعركة .

ومما يلاحظ أن كثيراً ممن يتحدثون عن الحضارة ، خاصة في مجال مخاطبة العامة ، يتعمدون عدم تحديد ماذا يقصدون بكلمة حضارة كنوع من التدليس ، فهو يتحدث عن الحضارة وفي ذهنه أشياء ومفاهيم ورؤى يعلم يقيناً أن تعريف الحضارة بها وإظهار ماذا يملأ جوفها منه سوف يقابل بالنقد أو الرفض ، أو يكشف الأرضية التي يقف عليها أمام الجمهور السامع أو القارئ فيعمد إلى التعميم والضبابية لكي ينفذ من خلالها إلى عقل المتلقي فى يسر ودون موانع مسبقة ، فيكرر ويردد : الحضارة ، الحضارة عشرات المرات ، ونريد الحضارة ، والموت لأعداء الحضارة ، تاركاً كل قارئ أو سامع يفهم منها الجانب الذي يرتضيه ويستعذب الوقع الجميل للفظ على الأذن وفي العقل .

فلن يتحدث أو يكتب أحد يدعو إلى الحضارة ويجد من يعانده أو يرفض ما يقوله أو يستوقفه ليحاسبه ، فكلنا يريد الحضارة حريصاً عليها مستهاماً بها

صبًّا ، كما يقول المتنبي ، ولكن ، وكما يقول المتنبي أيضاً ، ما أفهمه أنا من الحضارة وأريده غير ما يفهمه الجالس إلى جواري ويريده غير ما يفهمه كل قارئ في الصحيفة على حدة ويريده ، وتحديداً غير ما يعنيه الكاتب ويريده ويتعمد إخفاءه متمترساً خلف الاتفاق العام على شكل اللفظ أو المصطلح .

ثم يخرج في النهاية ليتاجر بمن يريدون الحضارة ، ويطالب بسحل من يريد هدمها ، دجل من طراز رفيع على حد قول الأب الروحي لكل هذا الطراز من الدجالين ، نابليون .

ومن اللطائف أو من الغرائب أنه فى بعض الأحيان يتحدد عند البعض ماذا يفهم من الحضارة وما تعنيه عنده بطريقة معكوسة وبمنهج السير من الخلف إلى الأمام ، باستحضار التعريف من خلال رؤيته وتأثره بالوجه الوحيد الذي تميزت به الحضارة الغالبة ، على طريقة الفلاش باك .

فالمسار الطبيعي هو أن يحدد المرء ماذا تعني عنده الحضارة ، وبناءً على هذا التعريف والتحديد يبدأ في بيان مظاهر هذا المعنى ولوازمه ونواتجه .

لكن ما يحدث في بعض الكتابات ، عمداً أو سهواً ، خاصة تلك التي تتحدث عن آثار الحضارة الإسلامية ، وعلى الأخص أثرها في أوروبا والغرب ، أن الذي يكتب يسير من الخلف للأمام .

فبدلاً من أن يحدد ما هي الحضارة ليحدد آثارها ، ومنها يحدد ما الذي تأثر به العالم أو أوروبا وما الذي لم تتأثر به ولم تأخذه ، وليس ضروريًّا أن تؤثر كل مظاهر حضارة ما في أخرى ، فقد تأخذ شيئاً وتدع أشياء ، وقد تقتبس منهجاً أو معتقداً وتعرض عن آخر .

بدلاً من ذلك تستشف من منهج الكاتب أنه نظر أولاً إلى الغرب ، وإلى عقدة كل المهزومين أمامه أو المنبهرين به ، أو مناط قوته وسيطرته : التقدم العلمي والتقنية والإبهار المادي .

فهو يبدأ بتقنية الغرب وعلومه ، ثم ينتقل خطوة إلى الخلف فيبحث عن جذور هذا التقدم العلمي والازدهار التقني في الحضارة الإسلامية ، فينتهي به السير في هذا النفق إلى أن الحضارة الإسلامية وآثارها في العالم هي الزيج والإسطرلاب واكتشاف بعض الأحماض ورسم بعض الخرائط وشروح ابن رشد لأرسطو .

فيصير بذلك كالحصان أو الحمار الذي يضع له صاحب العربة التي يجرها جلدة عريضة على جانبى وجهه حتى يسير في منتصف الطريق ولا يرى بعينيه ما يدور حوله يميناً ولا يساراً .

وهذا المنهج المقلوب الذي يبدأ من النظر إلى ما ازدهر في الحضارة الغربية وارتفعت به وسيطرت بالقوة على العالم ، العلوم الطبيعية والتقنية ، ثم يعتمد على تتبع النقطة التى بدأ منها والسير خلفها في تركيز شديد إلى أن يصل إلى طرف الخيط في الناحية الأخرى ، فينتهى بذلك إلى سجن الحضارة الإسلامية وحصارها في قوالب الحضارة الغربية ، هذا المنهج المقلوب يصدر في الغالب عن ثلاثة :

الأول : الموله المدله الذي يحمل راية الغرب وآبائه الروحيين فيه ويريد إدخال الناس في حظيرته ، فيعمد إلى هذا المنهج ليس بحثاً عن تراث آبائه وأجداده ليحييه ، ولا مزهوًّا بما أنجزت حضارته في العالم ، وإنما لكي يقول لنا إن الحضارة الغربية إنما ازدهرت وتقدمت بما أخذته من حضارتنا من أصول وجذور وبنت عليه ، وهو صحيح ولا يريده .

وعلى ذلك حين يدعونا إلى الأخذ من حضارة الغرب اليوم فهو لا يدعونا إلى خروج عن حضارتنا ولا طرحها ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا ، فيكون هذا المنهج هو التكأة التي يستند عليها في الدعوة إلى التغريب ، والصاروخ الذي ينطلق به من دائرة الجاذبية الإسلامية ، ثم ينفصل عنه ويطرحه بعد أن أنجز مهمته الكبرى في الدجل من الطراز الرفيع .

إذ بعد هذه الخطوة الأولى التي يكون قد حرث بها ذهن القارئ تختلط في منهجه وكلامه التقنيات والعلم الطبيعي بالأفكار والقيم ، ثم يقفز من هذا وذاك إلى النظريات والمناهج والفلسفات وكل ما يحدد شكل المجتمع وطبيعته ونظامه بكل أركانه وعلاقاته .

الثاني : الغربي القُح الذي يعلم تمام العلم أن الإسلام وحضارته ليس مجرد تقنيات ومجموعة آلات أو أحماض اخترعها أو اكتشفها المسلمون ، فهناك شيء آخر أكبر وأعظم ، وهذا الشيء الآخر هو الموجود الحي المتدفق الذي لا يغيض وإن تأخر المسلمون ، ولا تملك حضارة أخرى أن تطويه فيصير من الحفريات والتحف مثل منجزات أي حضارة سابقة ، ومنها حضارة الإسلام في مجال العلم .

وهذا الشيء الآخر الأعظم سلسلة العقائد والمفاهيم والمنظومات والقيم التي غيَّر بها الإسلام وجه العالم ، وأعاد بها صياغة فهم الإنسان للألوهية والكون والحياة وللإنسان نفسه ومعنى وجوده وما يربط بين هذا كله .

وهذا الشيء الأعظم ، إطلاقاً وليس تفضيلاً ، الذي يدركه الغربي هو الذي يكرهه ويتمنى زواله ويحجبه عن دائرة الضوء حتى لا يعود إلى موقعه الفاعل ، إذ به وبآثاره اكتشف المسلمون ما اكتشفوا واخترعوا ما اخترعوا وسخروا كل متاح لهم فى الكون ، وبه اكتسح المسلمون آباءه وأجداده ، وبه ، كما يؤمن ويوقن ، سيعود عالم الإسلام لاكتساحه إن عاد إلى مكانه الذي ينبغي له فيه .

فيحبس في منهجه الحضارة الإسلامية وأثرها في العالم في العلوم الطبيعية والآلات حتى لا يخرج المارد من القمقم ، وليظل الباب الذي دخل منه المسلمون إلى العالم ولا دخول لهم إليه إلا منه محجوباً مخفيًّا يواريه خلف العلم والتقنية .

وأيضاً لأنه إذا كانت العلوم والآلات هي الحضارة ، فكل ما اخترعه المسلمون واكتشفوه لا يُرى بالعين المجردة إذا وضع إلى جوار ما أنجزته الحضارة الغربية في عقد واحد من عقود القرن العشرين .

فيرضي بذلك كبرياءه ويشفي نفسه ، إذ هو لا يتكلم ولا يسهب في الكلام عن الحضارة الإسلامية ، بل عن حفريات وآثار حضارة كان اسمها الحضارة الإسلامية ، يشاهدها ويبتسم أمامها ويعددها ، لأن وجودها « على الرف » إعلان لموت الحضارة التي أنتجتها وحياة الحضارة التي ورثتها ، فيكون له ولأبناء جلدته العز والفخار والكبرياء ، وفي الوقت ذاته يطوي تحت جناحه المستلبين من أبناء الحضارة التي أصبحت آثاراً وتحفاً ، وتظل شعوب الإسلام التي تساق بهؤلاء المستلبين تتطلع إلى أضواء الغرب في حالة انبهار دائم يحجزها عن الفعل الذاتي .

فلا عجب أن كان العنوان الأثير الذي يختاره الغربيون لما يكتبونه عن حضارة الإسلام وعالمه هو : تراث الإسلام .

فبهذا العنوان كتب المستشرق توماس أرنولد كتابه الرائد عن الإسلام وحضارته وآثاره .

وتحت عنوان : « تراث الإسلام » أصدرت سلسلة عالم المعرفة الكويتية ثلاث طبعات من الكتاب الذي صنفه مجموعة من المستشرقين عن حضارة الإسلام وما تركته للعالم .

ورغم حرص المحقق والمعلق ، دكتور شاكر مصطفى على تأكيد أن كلمة : « تراث » في عنوان الكتاب (The Legacy of Islam) لا تُفهم في الغرب ولا يجب أن تفهم هنا بمعنى الإرث الذي مات صاحبه ، فإن هذا التطوع من الدبلوماسي العربي والمؤرخ القومي للدفاع عن المؤلفين بالتمحك في ما يفهم من الكلمة في الغرب اعتماداً على عدم معرفة القارئ العربي به لا يغني عنه ولا عن المؤلفين شيئاً ، ولا يهز من قناعتنا بل يؤكدها .

والفيصل بيننا وبينه وبينهم هو ماذا تعني الكلمة بالفعل في لغة أهلها الذين يخاطبهم المؤلفون وماذا يرد على أذهانهم عند سماعها ، لا ما يريد لنا الدكتور أن نفهمه .

Legacy معناها عند أهلها هو :

"Money and other things received at the death of another person" [1]

أي : المال والأشياء الأخرى التي يرثها شخص عند وفاة شخص آخر .

أو : **"Somethings remaining"**

أي : المخلفات .

فالترجمة الدقيقة لعنوان كتاب عالم المعرفة ، ولكتاب السير توماس أرنولد من قبله هي : تركة الإسلام أو مخلفاته .

وأما الثالث : فهو المسلم الذي ليس بالغربي ولا المستغرب ، ولكنه يقف أمام الغرب وقفة المهزوم نفسيًّا وعقائديًّا .

ولأنه مهزوم أمام الغرب فهو يواسي نفسه ويعزيها بأن تقدم الغرب وازدهاره إنما استعان فيه بما أخذ من حضارة الإسلام ، فيسجن حضارة الإسلام وتختزل آثارها في عقله في الآلات والعلوم دون وعي منه لتكون بذلك صاحبة فضل على معرفة الغرب التي هو مهزوم أمامها .

فهو إثبات للفضل من باب التنفيس عن الهزيمة والإحساس بالضعف .

- **وقفة ضرورية :**

تأسيساً على ما سبق ، هل الكاتب ضد العلم أو يدعو إلى نبذ التقنية ، أو هل هما معا ليسا من الحضارة ، وهل نهمل تراثنا العلمي ولا داعي للبحث فيه ولا الحديث عنه لنكون أقوياء غير مهزومين ولا مستغربين؟

بكل يقين : لا .

بل نحن في أشد الحاجة لأن نأخذ بالعلم والتقنية ، لكن المسلمين لن يصلوا إليها ، مهما حاولوا ، إذا كانت هي الهدف والمقصد والغاية أو هي

---

(1) Oxford Keys, p325

openkandil.com

المحرك والدافع ، وإنما يصلون إليها من باب استعادة النظام الشامل والمنظومة المتكاملة التي أوجدها الإسلام، وبها وعن طريقها دخل المسلمون إلى التاريخ، وكان ازدهار العلوم فرعاً هي أصله ، ولا يمكن للفرع أن يوجد فضلاً عن أن يحيا دون أصله .

وحالة العلم والبحث العلمي فى بلادنا خير برهان .

والعلوم والتقنية وجه من وجوه الحضارة ، ولكنها ليست هي الحضارة ، وإذا كانت أوروبا قد بعثت من رقادها بالعلوم والتقنية فصارت هي الحضارة ، ولا يعرف أهلها من الحضارة غيرها ، فليس ذلك شأنها في عالم الإسلام الذي أعاد صياغة الوجود كله ، وأعاد تنسيق عناصره وهندستها في إطار واحد متماسك مترابط له غاية ومرجع ، وله منشأ وبداية ، وله منهج وسيرة .

فنحن في حاجة ماسة إلى معرفة تراثنا في ميدان العلوم والتجربة وعمارة الدنيا ، لا لننفس عن ضعفنا ونعزي أنفسنا بأن الغرب الذي قهرنا إنما قامت حضارته على أكتاف حضارتنا ، ولكن لنعرف المنبع الذي نشأت منه هذه العلوم ، والطاقة التي دفعت العمران والمنهج والنظام العقائدي والفكري الذي صاغها ومكانها منه وعلاقتها به ، لنعيد للعلوم وجهها الإسلامي ونستكمل مسيرة أسلافنا العظام .

بإيجاز ، نحن بحاجة ماسة إلى نزع المنظار الغربي عن عيوننا لنرى الأشياء على حقيقتها لا كما انطبعت صورة الغرب عليها .

وبإيجاز أكثر ، لكي يستعيد المسلمون الحضارة والعمران والعلم والتقنية التي يحلمون بها حلم العاجزين ، لابد أولاً أن يستعيدوا البناء الذي شاده الإسلام في العقول والنفوس ، ويعيدوا اكتشاف نظام الإسلام للكون والإنسان والحياة والعلم ، لا سبيل لذلك إلا بهذا .

ركام من التعريفات

- **الأنثروبولوجي : «يقصد علماء الأنثروبولوجيا بالحضارة الإشارة إلى ثقافة تقف موقف التعارض أو التقابل مع الأفكار والقيم والأوضاع العامة السائدة في ثقافات الجماعات البدائية ، وعلى ذلك ، فالحضارة بالمعنى الدقيق للكلمة تصدق في نظرهم على النماذج الثقافية التي تتميز بالتغاير والتفاضل العضوي والاجتماعي والأبنية الاجتماعية المعقدة التي تتلاءم مع هذا التغاير والتفاضل»[١].**
- **إدوارد تيلر : «الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع»[٢].**
- **ول ديورانت : «الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة :**

  ١- الموارد الاقتصادية ٢- النظم السياسية ٣- العقائد الخلقية

  ٤- متابعة العلوم والفنون»[٣] .
- **دكتور حسين مؤنس : «هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان ذلك المجهود المبذول للوصول إلى تلك**

---

(١) دكتور أحمد أبو زيد : الحضارة بين علماء الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا ، عالم الفكر ص ١٥ ، أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٤م .

(٢) دكتور عفت الشرقاوى : في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص١١ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٩/١ .

الثمرة مقصوداً أو غير مقصود ، وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية»[1].

- ابن خلدون : «الحضارة هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية . . . والحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر»[2].
- المعجم الفلسفى : «الحضارة Civilization عند المحدثين لها معنيان :

١- المعنى الموضوعي : وهو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والتقني والعلمي والفني تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة ، ولكل حضارة نطاقها Aire وطبقاتها Couches ولغاتها Languages ، فنطاقها هو حدودها الجغرافية ، وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات .

٢- المعنى الذاتي المجرد : وتطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة للمرحلة الهمجية أو التوحش ، أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة ، وبعض العلماء يطلق لفظ الحضارة على اكتساب الخلال الحميدة ، وبعضهم يطلقه على نتيجة هذا الاكتساب ، أي على حالة من الرقي والتقدم في حياة المجتمع بكاملها ، ويطلق لفظ الحضارة أحياناً على مظاهر التقدم العقلي والمادي معاً في مقابل إطلاق الثقافة على التقدم العقلي وحده»[3].

---

(١) دكتور حسين مؤنس : الحضارة ، ص ١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩١ ، ٤٠٧ .

(٣) دكتور جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ٤٧٦/١ ، ٤٧٧ .

● **معجم ويبستر : الحضارة ـ المدنية Civilization :**

1- A relatively high level of cultural and technological development, specifically the state of cultural development at which writing and keeping of writing records is attained .

١- مرتبة عليا نسبيًّا من التقدم الثقافي والتقني ، وبالتحديد المرحلة الثقافية (الحضارة) المتقدمة التي تمكنت فيها البشرية من معرفة الكتابة واستخدامها .

2- The culture characteristics of a particular time or place .

٢- الخصائص الثقافية (الحضارية) لمرحلة زمانية معينة أو مكان معين .

3- Refinment of thought , manners or taste .

٣- تهذيب السلوك وصقل الفكر والتذوق .

4- A situation of urban comfort .

٤- حالة من الراحة والرفاهية الحضرية (المدنية) [١] **.**

● **لسان العرب : «الحضور نقيض المغيب والغيبة ، حضر يحضر حضوراً وحضارة ، وكلمه بحضرة فلان وبمحضر منه أي بمشهد منه ، والحضر خلاف البدو ، والحضر والحضرة خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ، والحاضرة والحاضر الحي العظيم أو القوم ، وقال ابن سيدة : الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم ، ويقال للقَيِّم على الماء حاضر وحضر ، ورجل حضر يتحين طعام الناس حتى يحضر»** [٢] **.**

---

(1) Webster's ninth new collegiate dictionary, P . 244 .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ٤/١٩٦-٢٠٢ ، مادة حضر .

وقفة منهجية :

١- الترتيب مقصود : فقد بدأ بتعريف الحضارة اصطلاحاً عند الغربيين ، ثم عند العرب ، ثم التعريف والأصل اللغوى الغربي للكلمة والأصل العربي لها .

٢- يتداخل مصطلح الحضارة تداخلاً شديداً ويشتبك مع مصطلح الثقافة ، وكلاهما أوروبي المنشأ . وقد يستخدم أحدهما بديلاً عن الآخر أو معبراً عنه أو عن كليهما معاً كما أشار دكتور أحمد زيد وصاحب المعجم الفلسفى ، بل إن معجم ويبستر يستخدم ثقافة Culture لتعريف حضارة Civilization .

٣- الحضارة مصطلح ، والمصطلح كما أشرنا من قبل ليس كلمة عادية ، ولكنه لفظ مشحون بالمعاني المختلفة المتضاغطة والممتزجة في داخله ، والتي لا يفهم إلا بمعرفتها ، ولأن الكلمة كمصطلح حديثة وهي نتاج الفكر الغربي ، فإنها تحمل من المعاني ما لا يمكن فهمه إلا بالعودة إلى أصلها الأوروبي Civilization ، والتي ترجمتها الأدق هي المدنية ، وهو المعنى الذي يحمله جذر الكلمة في صورها الأخرى .

فـ Civilian هو المدني أو الشخص الخاضع للقوانين المدنية أو يعمل بالوظائف المدنية ، ووضعها قبل كلمة Engineer يعني أنه مهندس مدني لا حضاري ، فمعنى الكلمة هو وصف لأحوال قاطني المدن .

ويلاحظ أن مقابل الكلمة الأوروبي هو العسكري ، فمعجم ويبستر ينص على أن Civilian هو الذي لا يخدم في القوات المسلحة Not serving in the armed forces

٤- معظم ، إن لم يكن كل ، تعريفات Civilization الأوروبية والحضارة العربية ، التي هي صدى للتعريفات الأوروبية ، تتحدث عنها على اعتبار

أنها حالة نشأت من أخرى أو تلتها ، تتسم السابقة بالتخلف والانحطاط واللاحقة بالرقي سواء كان ماديًا أو عقليًا أو معنويًا أو نفسيًا أو اجتماعيًا .

وعلى هذا يُنظر إلى الحالة أو المرحلة الناتجة وصفاتها وآثارها في المكان والزمان والأشخاص على أن هذه هي الحضارة،أو بتعبير دكتور حسين مؤنس: الحضارة هي الثمرة .

٥- عرف ابن خلدون الحضارة بأنها التفنن في الترف ، وأنها : «أحوال زائدة على الضروري» ، ثم جعل هذا الترف وهذه الزيادة سبباً لخراب المجتمعات وزوال العمران وانهيار الأمم ، فهذا الترف والتأنق : «**يتبعه طاعة الشهوات ، فتتكون النفس في تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ودنياها**»[1].

فكأن الحضارة عنده التي هي سكن الحواضر خلاف البوادي وما يتبعها من ترف ورفاهية وتأنق مرحلة فى خراب العمران ، وذلك على خلاف المفهوم من كل التعريفات الأخرى التي تجعل الحضارة هي الحالة الأرقى وهي غاية العمران ومنتهاه ، وإن كان يفهم ضمناً أن هذه الحالة لابد أن يتبعها تدهور وانحلال .

أو بصورة أخرى ، كأن ابن خلدون ينظر إلى الحضارة من جهة ما يلحقها ، والتعريفات الحديثة تنظر إليها من جهة ما يسبقها ، مع اختلاف معنى الحضارة عند ابن خلدون عن الآخرين .

* * *

(١) المقدمة ، ص ٤١٠ .

رؤية مستقلة

هل هناك شيء يمكن أن يجمع هذه التعريفات كلها معًا ؟

هل نحن نحاول إنشاء تعريف جديد؟

لم لا !

فإن لم يكن جامعًا مانعًا كما يقول أهل المنطق ، فليكن على الأقل منهجنا الذي نبني عليه نظرتنا إلى الحضارة عامة ، وإلى الحضارة الإسلامية وآثارها في الإنسانية خاصة . أو فلنقل إنها رؤية مستقلة وفهم خاص للحضارة .

تشترك تعريفات الحضارة كلها ، كما رأينا ، في شيء واحد رغم اختلافها وتباينها الشديد بين الأركيولوجي والأنثروبولوجي ، وبين المادي والروحي ، وبين الغربي وابن خلدون وابن منظور .

وهذا الشيء الذي تشترك فيه كل التعريفات هو الخروج أو الانتقال من حالة إلى حالة أو من مرحلة إلى مرحلة ، تكون الأولى أدنى من الثانية وأقل رقيًّا وسموًّا بالإنسان ، ماديًّا أو اجتماعيًّا أو روحيًّا أو عقليًّا .

بل إن هذه التعريفات كلها تشترك مع الأصل اللغوي في هذا الانتقال وهذا التحول ، فالحاضر ليس قاطن الحاضرة ، ولكنه الذي حضر من البادية ، أي تحول وانتقل منها إلى الحاضرة ، وهي صارت حاضرة بتغير حدث فيها ، وهو أن سكنها الأهل وقروا فيها بعد أن لم يكونوا فيها .

والحضور ، نقيض الغيبة أو المغيب ، تحول وانتقال من حالة الغيبة إلى حالة الوجود والشهود .

و Civilization الأوروبية يجمعها مع حضارة العربية أنها تغير لسكنى المدن ، و Civilian هو الذي تحول من العسكرية إلى المدنية .

لذا إذا كان بعض الباحثين يرى أن الحضارة هى : «**الاستقرار والقرار**[1]، فإننا نرى أن الحضارة ليست هي الاستقرار ولكنه التغير والتحول الذي أنتج هذا الاستقرار ووطد له ، أو هي التغير وما نتج عنه من استقرار في وحدة واحدة .

إذ لو كانت الحضارة هي الاستقرار بدون هذا التغير والتحول لما حدث الخروج من حالة إلى أخرى ، ولا من درجة إلى أرقى منها ، ولما فُهم من الحضارة إلا أنها تثبيت أوضاع قائمة وحالات موجودة .

فالحضارة ، عندنا ، ليست هي العلوم والتقنية ، ولا هي الازدهار والرفاهية ، ولا هي المنجزات العقلية أو الفكرية أو المادية ، وإنما هي التغيير وعملية الخلق والتحول التي أنتجت هذا كله أو بعضه .

ولا يصح أن تطلق الحضارة على المنجزات والنواتج إلا بقدر ما تحمل هذه من بصمة الأصل وما يظهر عليها من آثاره فيها .

ونصيب كل أمة من الحضارة هو بقدر ما غيرت في مسيرة الإنسانية وعدلت في مسارها وأخرجتها من حالة إلى حالة .

فالحضارة التي غيرت مسار العالم وقفزت بالتقنية هي حضارة بقدر هذا الوجه الذي غيرت منه ، وتقدر حضارتها بمجموع آثارها في نواحى الإنسانية كلها سلبًا وإيجابًا .

والحضارة التي اكتشفت قديمًا الزراعة هي حضارة بقدر هذه النقلة في تاريخ البشرية ، وربما أصبحت الزراعة التي هي نتاج هذه النقلة ، فيما بعد ، من آثار الحضارة ، أو ربما حتى لم تعد من أوجه الحضارة مطلقًا ، ولكن تظل النقلة والتغيير الذي أتى بها هو الحضارة .

---

(١) الأستاذ محمد هيشور : سنن القرآن فى قيام الحضارات وسقوطها ، ص٦٣ .

obeikandl.com

والحضارة التي أعادت صياغة معنى الألوهية والإنسان والدنيا والآخرة والمعرفة في نسق متفرد غير مسبوق هي حضارة ، وحضارتها هي بقدر هذه النقلة الجبارة في عقل الإنسانية وفى نفسها ومسيرتها .

وآثار هذا النسق المنفرد وهذه النقلة على مظاهر الحياة والعلم والعمران مرحلة تالية ، هي نواتج التغيير ، وليست هو .

فإذا كان الدكتور حسين مؤنس قد عبر في إيجاز بليغ عن نظرة معظم المؤرخين للحضارة بأنها ثمرة ، فإننا نرى أن الحضارة هي ما أنتج هذه الثمرة وأخرجها للوجود وليست هي نفسها .

وربما وقعت الثمرة أو أعطبها الزمن وتظل الحضارة التي أثمرتها قادرة على إثمار غيرها لا ينضب لها معين ولا يجف لها أصل .

وتبقى أمامنا مشكلتان :

الأولى : هي أن لفظ تغيير أو تحول يكاد يكون أقرب في الذهن إلى المعنى السيئ منه إلى المعنى الحسن ، ذلك أن التغيير هو : « **جعل الشيء على غير ما كان عليه** »[1] .

ويُفهم منه تحويل الشيء عن حالته الأصلية أو الحقيقية ، التي هي بالضرورة الأفضل لأنها حالة الخلق .

ومع ذلك نقول : قد يكون الشيء على ما هو عليه ، وما هو عليه في المرحلة التي يتغير فيها ليس بالضرورة هو حالته الحقيقية أو الأصلية ، بل ربما كانت حالته التي طرأت عليه أو اكتسبها بأثر التاريخ والزمن أو اضطراب العقل وانحراف النفس الإنسانية ، وبينها وبين حالته الأصلية بون شاسع .

وربما نقول أيضًا : إن الحضارة في هذه الحالة هي إعادة الأشياء أو الأفكار من صورتها التي صارت عليها إلى حقيقتها الأصلية الصافية .

---

(١) المعجم الوجيز ، ص ٤٥٨ .

وأصدق مثال على هذا وأوضحه هو التوحيد ورسالات الأنبياء ، والتي هي بمقياسنا ثورات حضارية تغييرية لإعادة العقائد والقيم من حالتها التي صارت إليها إلى حالة الخلق الأصلية المهتدية .

وما قلناه يصل بنا إلى المشكلة الثانية .

هل كل تغيير يصح أن يسمى حضارة؟

سيقال : بالطبع لا . فشرط إطلاق الحضارة أن يكون التغيير إلى الأفضل ويسهم في رقي الإنسانية .

ونسأل : وهل يكفي أن يكون التغيير والنقلة في جانب واحد من جوانب الإنسانية لكي يقال عنه وعن ما نتج عنه أنه حضارة؟

قد يقال : نعم يكفي ، ولو أردت الدقة فلتقيد الحضارة في هذه الحالة بالجانب الذي ظهر فيه التغيير والترقي ، فنقول : حضارة العلم أو حضارة الأخلاق وهكذا .

ونقول : وهذا لا يكفي ، فربما يكون التغيير إلى الأرقى في جانب من جوانب الإنسانية منعزلاً عن باقي جوانبها وينمو بصورة طردية ، أو عشوائية لا يدخل في حسبانها جوانب الإنسانية الأخرى ، بل قد تكون على حسابها ، ثم يكتشف أصحاب ما يسمى حضارة أن ما حدث من تغير وما نشأ عنه من تقدم قد أدى في النهاية إلى تمزق الإنسانية وزيادة شقائها .

هل نحن في حاجة إلى مثال .

يقول المفكر الفرنسي وأستاذ علم الاجتماع في السوربون آلان توران في كتابه : نقد الحداثة : «**سواء كان المرء مثقفًا أم لا ، لا يوجد إنسان حي في الغرب في نهاية القرن العشرين ينجو من القلق أمام فقدان كل معنى ، وأمام غزو الحياة الخاصة ، وغزو القدرة على الوجود كذات بواسطة الدعاية والإعلان ، وبتدهور المجتمع إلى مستوى الجمهرة ، والحب إلى مستوى اللذة . . . إن القول بأن التقنيات الجديدة للاتصال قد قربت بيننا**

وجعلتنا نعي أننا ننتمي إلى نفس العالم قد يبدو سطحيًّا وتافهًا إذا لم نضف أن هذا العالم الذي تسارعت فيه الانتقالات وتضاعفت يشبه أكثر فأكثر عالم المرايا ، نحن ننتمي إلى نفس العالم ولكنه عالم محطم مشتت»[1]

وربما كان الأدباء أصدق حسًّا وأكثر إحساسًا وأبلغ تأثرًا وأرقى إبانة ، فهم مقياس دقيق لحالة الإنسانية في المجتمع .

يقول جوته على لسان فاوست في مسرحيته المشهورة بنفس الاسم : « **إن كل مظاهر التقدم التكنولوجي لن تنقذنا مما نحن فيه ، كما أن أجهزتنا وآلاتنا وأدواتنا ليس فيها الكفاية أبدًا ، إذ لابد من الاعتماد على حسنا وعلى بصيرتنا ، على كينونتنا الحقيقية كبشر وآدميين»**

والغرب ، وهو المنظور إليه في عصرنا على أنه الحضارة بسبب ما بلغه من درجات عليا في التقنية والتصنيع والرفاهية الاستهلاكية ، تبلغ فيه نسبة الأطفال غير الشرعيين ما بين ٢٥٪ في بريطانيا و٥٩٪ في أيسلندا ، والسويد صاحبة أعلى معدل للرفاهية والدخل حسب تقارير البنك الدولي هي صاحبة أعلى معدل للانتحار في العالم حسب تقارير منظمة الصحة العالمية .

إذًا التغيير في جانب واحد من جوانب الإنسانية ، أيًّا كان مقداره ، لا يعني الحضارة على إطلاقها .

ومن كل ما سبق نجازف مجازفة أخرى : هل يمكن وضع معيار للحكم على تغيير ونقلة بأنه حضارة أم لا ؟

في علوم الطبيعة والفيزياء الفلكية يُحكم على صحة أي نظرية لتصور الكون وتفسير حركته ونظامه بقدرتها المنطقية على ربط أكبر عدد من الموجودات والظواهر الكونية في نسق واحد ، وبشمولها لكل أبعاد الكون

---

(١) آلان توران : نقد الحداثة ، ص٢٢٢ ، ٢٨٩ .

ومكوناته في رؤيتها ، وبقدرتها على التفسير المنطقي لما يحدث في الكون من ظواهر وأحداث .

فمثلاً نظرية نيوتن الميكانيكية في قوانينه الثلاثة المشهورة ونظرية الجذب العام حُكم عليها بالصحة لقدرتها على توحيد كل الأفلاك وعناصر المكان في نظام واحد يديره قانون واحد .

ثم تجاوزتها نظرية النسبية لأينشتين وصارت أصح منها بقدرتها على توحيد المكان بكل عناصره مع الزمان في منظومة واحدة أو وحدة واحدة ، هي ما يطلق عليه الزمكان Time Space Unit تخضع لنظام واحد وقوة واحدة .

ومن هذا المعيار في الحكم على نظريات تفسير نشأة الكون وتركيبه وحركته نقفز إلى معيار الحكم على التغيير والنقلة ، هل هو حضارة أم لا .

فمعيار الحكم بالحضارة هو أولاً بشمول التغيير إلى الأرقى لأكبر عدد ممكن من جوانب الإنسان ، وبمجموع آثار هذا التغيير في نواحي الإنسانية كلها ، وبمدى قدرة هذا التغيير على ربط الإنسان بعناصر الوجود في نسق أو منظومة واحدة متناسقة ومتجانسة ، وبقدر ما تحتوي هذه المنظومة من عناصر الوجود وتتمكن من ربطها وتفسيرها يكون الحكم عليها .

بإيجاز ، معيار الحكم هو قدرة التغيير على الإجابة على الأسئلة الكبرى للإنسان ، ومدى تأثير هذه الإجابة على جوانب الإنسان ومسيرة الإنسانية .

هذه الأسئلة الكبرى التي كانت وما زالت الشغل الشاغل للإنسان ، ولا ترتقي البشرية إلا بتحديد موقفها منها ، والتي كان البحث عن إجابتها ، على الجانب الغربي ، مهمة الفلاسفة وتصوراتهم ، فلما فشلوا وأيقنوا عجز عقولهم عن الوصول إليها تركوا البحث عنها وانصرفوا إلى ما يدخل في نطاق عقولهم وما يستطيعون إخضاعه للبحث والدراسة ، الظواهر الطبيعية .

فكانت هذه النقلة من البحث في علة الوجود ومصيره وهدفه إلى البحث في ظواهره وقوانين وجوده وحركته ، والتي جسدها مقال ديكارت المشهور ، هي

بداية الرقي الغربي في جانب العلوم والتقنية والذي جاء على حساب جوانب الإنسانية الأخرى .

ذلك أن ديكارت وعقول الغرب كلها لم تستطع الوصول إلى المنظومة الشاملة الحقيقية ، التي تستطيع رؤية مكونات الإنسان كلها ووسائل معرفته وتضع كل منها في مكانه ومجاله ، وتستطيع استيعاب البشر جميعًا ، واستيعاب الكون وكل الموجودات فيه ، وتضع الإنسان في مكانه الصحيح منه ومنها ، وتفسر للإنسان الأسئلة الفطرية المركوزة في كل نفس ولا يستطيع الوصول إلى إجابتها في ظل النسق والمنظومة الغربية للألوهية والكون والإنسان : كيفية وجوده وعلة وجوده ومصير وجوده .

وليست المسألة فلسفية أو نظرية بحت ، لأن الإجابة على هذه الأسئلة وتحديد وضع الإنسان هو الخطوة الأولى لتحديد موقفه من الكون والموجودات وكيفية تعامله معها ، ولتفجير طاقة حركته .

وهي مسائل حسمها الغرب وحدد موقفه منها ، وإن يكن في الاتجاه الخطأ .

ويبقى في ضوابط رؤيتنا للحضارة شيء واحد ، هو أن هذا التغيير والانتقال إلى الأرقى في أى جانب من جوانب الإنسانية لابد أن يتصف بالذاتية .

والمقصود أنه لنحكم على أمة أنها أنشأت حضارة ، فلابد أن تكون فاعلة للتغيير منتجة له لا متلقية له منفعلة به ، بمعنى أن تنتج الأمة هذا التغيير من داخلها ومن رؤيتها هي وبطاقتها هي وبجهادها وأفعالها هي ، لا أن يفعل ذلك الآخرون ثم تصبح هي سوقًا لعرض بضائعهم ، أفكارًا ونظريات وماديات وأدوات ، وتقوم بتكديسها واستهلاكها ثم تدعي بعد ذلك أن هذه هي الحضارة وأنها دخلت الحضارة .

فهذه ليست هي الحضارة ولا شبه الحضارة ، وإنما ذهان السهولة هذا ، كما يسميه الأستاذ مالك بن نبي[1]، هو عين التخلف ، لأنه يقعدها عن فعل الحضارة الحقيقي .

فالحضارة لا تبدأ إلا من رؤية متميزة للأشياء وللإنسان والكون والوجود كله ، يتبعها ظهور آثار هذه الرؤية في سلوك الإنسان وأفكاره وآرائه ونشاطه وحركته وعمله وعلمه وعلاقته بكل شيء حوله .

هذه فقط هي الحضارة أو النموذج الإسلامي للحضارة .

وعلى ذلك ، وبناء على رؤيتنا هذه ، فإن الفعل الذى يصح أن يسمى حضارة أو أن ينسب إلى أفعال الحضارة بالنسبة للعرب كمثال في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي هو حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ ، وليس السادس من أكتوبر ، أو تحديدًا الفترة المحصورة بين التفكير الجدي وبدء الإعداد والتجهيز للحرب وبين بدء محادثات الكيلو ١٠١ المشهورة التي انتهى بها فعل الحضارة واتصل ما انقطع من سجل التخلف .

ويلي ذلك في الأفعال التي لا يصح أن ينسب إلى الحضارة غيرها الانتفاضة الفلسطينية .

وما قبل هذين ، وما بعدهما ، وما بينهما ليس سوى سيال متدفق غير منقطع من ضد الحضارة ، لا يُحسِّنه ولا يجمله ولا يخفف من وطأة التخلف فيه حشد الآلات والمستهلكات ونواتج أفعال الأمم الأخرى .

* * *

(١) الأستاذ مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامى ، ص ٩٤ .